

الأخلاق في خطٍ التوازن



من مميزات الأخلاق الإسلامية أنّها أخلاق واقعية تناهُطُ الإنسان في مشاعره وأحساسه، وفي أوضاعه الطبيعية في الحياة، ثم تحاول الارتفاع به إلى الأعلى من موقع إرادته و اختياره، فمن ذلك أنَّ الناس عندما يختلفون في حياتهم، ويتنازعون ويتقا تلون فيسيء إنسان إلى إنسان بحيث يكون هناك إنسان يسيء، وآخر يُسأء إليه، إمّا بكلمة غير مسؤولة، وإمّا بحركة غير مسؤولة كما يضر إنسان إنساناً، أو يحرجه، أو يشرّده من بلده، أو يغتسل مصالحه، ففي مثل هذه الحالة جعل الله للإنسان الحقَّ - في الخط الأخلاقي الحقوقي الإسلامي - بأن يرد العداون بمثله (فَمَنْ أَعْتَدَ لَهُ كُمْ فَأَعْتَدْ دُواعَلَيْهِ بِمَثْلِ مَا أَعْتَدَ لَهُ كُمْ) (البقرة/194)، (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمَثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ) (النحل/126)، (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا) (الشوري/40). فالخط الإسلامي هو أنَّ لك أن تأخذ حقَّك ممن اعتدى عليك بالعدل، أي بشرط أن لا تتجاوزه قيد شعرة، فإذا سبَّك إنسان فليس لك أن تضربه، وإذا ضربك فليس لك أن تجرحه، وهكذا إذا اغتابك فليس لك أن تبادره بطريقة عنيفة. وفي القصاص لو قتل إنسان إنساناً، فإنَّ القرآن يحدُّد الموقف في ذلك في قوله تعالى: (وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلَنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ في الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَذْهُورًا) (الإسراء/33)، فإذا أردت أن تقتل أُختَل قاتل ولدك أو قاتل أخيك، وليس لك أن تقتل أباًه أو عمّه أو ولده أو مَنْ يحيط به، بل ليس لك أن تضرب القاتل ولا أن تجرحه، وليس لك أن تمثُّل به. وهذا ما طبقة أمير المؤمنين عليٰ بن أبي طالب (ع) على نفسه، فعندما ضربه (ابن ملجم) جمع الإمام (ع) أهل بيته وعائلته وبني عبدالمطلب وتحدَّث معهم في الخطوط العامة، ثمَّ تحدَّث بعد ذلك في القضية الخاصة، قال لهم فيما روي عنه: (يا بني عبدالمطلب لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين خوضاً تقولون قُتِلَ أمير المؤمنين قُتِلَ أمير المؤمنين ألا لا يقتلن بي إلا قاتلي، أُنظروا إذ أنا متُّ من ضربته هذه، فاضربوه ضربة بضربة، ولا يمثُّل بالرجل. فإِنَّمَا سمعت رسول الله (ص) يقول: "إِنَّمَا كُمْ وَالْمَثْلَةُ وَلَوْ بِالْكَلْبِ الْعَقُورِ". لا تقطعوا يديه ورجليه أو تشوهوا صورته، بل ليس لكم أن تبصقوا بوجهه، ليس لكم أن تذلُّوه، أو أن تجيعوه، فهذه ليست من الحقوق التي جعلها الله لكم، إنما جعل أن تقتلوه فقط بالحقِّ. وقد مارس أمير المؤمنين عليٰ بن أبي طالب (ع) هذا الأمر في حادثة أخرى، حيث كان جالساً مع أصحابه وهو يومئذ أمير المؤمنين أي (ال الخليفة)، فمررت امرأة جميلة، فرمقها القوم بأصارهم، فالتفت إليهم الإمام عليٰ (ع) معلماً ومجهاً، لم يتحدَّث معهم بأسلوب عنيف، قال لهم "إنَّ أيمار هذه الفحول طوامح، وإنَّ ذلك سبٌ هبأ بها، فإذا نظر أحدكم إلى امرأة تعجبه فليلامس أهلها، فإذاً ما هي امرأة كامرأته" وسكت الإمام. وكان هناك شخص من الخارج الذين كفَّروا عليهما (ع) لقيوته بالتحكيم قد أعجب بكلام الإمام، ولكنَّه يعتقد بأنَّ الإمام كافر، فقال: "قاتلهم الله كافراً ما أفقهه!!" يعني كم يفهم هذا الكافر قاتله الله، فتصوَّر أنَّ خليفةً وبهذه السلطة وأصحابه حوله، وهذا الخارجي يشتمه وهو بمفرده، ماذا يكون الموقف؟ لقد وثَّب إليه القوم ليقتلوه، فأوْمأ إليهم أمير المؤمنين وقال: "رويداً إنَّما هو سبٌ بسبٍ أو

عفو عن ذنب" إن" الرجل سيدني، فليس رد فعل السب هو القتل (فَمَنْ أَعْتَدَ لِي كُمْ وَأَعْتَدُ وَلِي مَا أَعْتَدَ لَهُ بِمَثْلِ مَا أَسْبَهُ لَأَخْذَ حَقّي، إِمَّا أَنْ أَتَرَكَ ذلك فأعفو عنه. هذا هو الخط الإسلامي الواقعي وهو أن يكون لك الحق ولكن يعدل، لأنك عندما تمنع إنساناً من أن يثار لنفسه، فإنه يخلق مشكلة اجتماعية لأن المسألة عند ذلك سوف تتحول إلى عقدة نفسية تتفجر بأشياء أخرى، لأن طبيعة ثار الإنسان لذاته هي طبيعة إنسانية ذاتية يتحرّك نحوها الإنسان بشكل طبيعي، ولكن إما سبحانه وتعالى بعد أن أعطاك هذا الحق قال لك إنك صاحب حق الآن، ولكن إذا عفوت عن هذا الإنسان وأنت قادر أن تقتص منه فإن يعطيك ثوابه وأجره، وإن ذلك يمكن أن يمثل وسيلة هي الأقرب في خط الانصباط في خط إما والالتزام بموضع حجة إما ورضاه، ولذلك قال (وَإِنْ تَعْفُوا أَوْ قَرَبُ لِلْتَّقْوَى) (البقرة/237). وفي آية أخرى يزيد إما لك أن تخلّق باللاقة. فقد أعطاك القدرة علىأخذ حقك وقال لك اعف وهو القادر على أن يأخذ حقه منك ومن كل العاصمين وقد عفا عنك (إِنْ تُبْدِدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءَ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَافِوًّا وَقَدِيرًا) (النساء/149). فاما هو العفو القدير، فكن أن العفو من موقع القدرة، فهي الحديث "تخلّقوا بأخلاق إما". وهكذا رکز إما سبحانه وتعالى الأخلاق الإسلامية على خط التوازن، فلا يعني كونك صاحب حق أن تأخذ بحقك كيفما شاء، فاما أراد لك أن تعفو عن من أساء إليك، هذا في القرآن الكريم. أما في السنة الشريف، فهناك حدث يقول: "ألا أخبركم بخير خلائق الدنيا والآخرة، العفو عن طلكم، وأن تصل من قطعك، والإحسان إلى من أساء إليك، وإعطاء من حرمك". وهذه الخصال تمثل عمق الأخلاق الإسلامية، فإنه إذا كنت تعطي من أعطاك، فهذه مبادلة، أو تصل من وصلك فهذه أيضاً مبادلة وعملية تجارية وليس أخلاقاً، إن الأخلاق تتمثل وتتجلى عندما يكون للطرف الثاني حق عليك بل يكون ضد الحق، وهذا الذي عبد عنه الإمام علي بن الحسين زين العابدين (ع) في دعاء مكارم الأخلاق) "اللَّهُمَّ وسِدْ دُنْيَ لَأَنْ أَعَارَضَ مَنْ غَشَّنِي بِالنَّصْحِ، وَأُجْزِي مَنْ هَجَرَنِي بِالْبَرِّ، وَأُثْبِ مَنْ حَرَمَنِي بِالْبَذْلِ، وَأُكَا فِي مَنْ قَاطَعَنِي بِالصَّلَةِ، وَأُخَالِفُ مَنْ اغْتَبَنِي إِلَى حُسْنِ الدَّكَرِ".